دراســـة صوتيـــة للنص القـــرآني

سورة (ق) أنموذجا

الأستاذة: يمينة مصطفاي

المركز الجامعي –البويرة-

يعتبر القرآن الكريم الأصل الأصيل للأصوات في اللسان العربي، وقد حافظت هذه الأصوات على جوهرها بفضل جهود علماء القراءات والتجويد في تطبيق وترسيخ أحكام التلاوة الصحيحة، قال الله تعالى: ((إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)) ولعل دراسة الصوت في القرآن الكريم تنبئ عن رؤية جديدة للصوت اللغوي، خاصة مع نتائج التحليل الصوتي لنماذج من الآيات القرآنية.

وقد اخترنا في دراستنا هذه سورة (ق) أنموذجا مع ما تميزت به من قوة المضمون وقوة الأصوات المستعملة في التعبير عنه.

هذا ما سنحاول تقديمه من خلال دراسة صوتية للسورة محاولين تسخير ذلك في الفهم العام لمضمونها.

ونستهل هذا الموضوع بسؤال بسيط:

هل يمكن فهم القرآن الكريم من خلال تذوق أصواته تذوقا سليما ؟

سنحاول الإجابة على هذا السؤال بالتحليل الآتي:

– <u>التحليل الصوتي:</u>

– سورة (ق): سورة مكية وهي خمس وأربعون آية، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والميعاد

والقيام والحساب، والجنة والنار والثواب، والعقاب والترغيب والترهيب[1]، فهي تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد، وقضية الوحي إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقضية الحساب في الآخرة[2]، وهي سورة رهيبة شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري، وصورها، وجرس أصوات فواصلها التي تأخذ على النفس الإنسانية أقطارها وتتعقبها منذ نشأتها إلى الممات، إلى البعث والحشر والحساب[3].

بجردنا للأصوات الواردة في السور نلاحظ ما يلي وبوضوح كبير:

إن الأصوات الغالبة في هذه السورة هي: الباء، والقاف، والدال على الترتيب حيث: بلغ صوت الباء سبعين مرة موزعا على مساحة الآيات الكريمات.

وبلغ صوت القاف خمسا وخمسين مرة على مساحة الآيات الكريمات.

وبلغ صوت الدال اثنين وخمسين مرة على مساحة الآيات الكريمات.

والأصوات الثلاثة مما يعرف بأصوات " القلقلة "، وهي مجهورة، وشديدة الوقع في أذن السامع، قد جاءت كفواصل مما يبرز وقعها بقوة وشدة.

فما السر في مجيئها على هذه الحال، وماهو السبب في ورودها دون غيرها بهذه النسبة الكبيرة، وما علاقة كل هذا مع محتوى السورة الكريمة ؟

للإجابة على هذا، يجدر بنا أولا تتبع خصائص هذه الأصوات لنتبين علاقاتها فيما بينها من جهة، وعلاقتها مع محتوى السورة الكريمة.

1 – الباء:

يقول ابن جنيَ: " الباء حرف مجهور، يكون فاء وعينا ولاما (...) ولا تستعمل زائدة"[4] .

ويقول ابن سينا: " والباء عن قلع الأجسام اللينة المتلاصقة بعضها عن بعض "[5].

و يقول أيضا: " فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض "[6].

ويقول الدكتور رمضان عبد التواب: "الباء صوت شديد، مجهور، مرقق، يتم نطقه بضم الشفتين ورفع الطبق، ليغلق ما بين الحلق والتجويف الأنفي مع ذبذبة الأوتار الصوتية"[7].

ويقول الأستاذ العلايلي: "الباء يدل على بلوغ المعنى في الشيء بلوغا تاما، ويدل على القوام الصلب بالتفعل"[8].

من هذا تبين خصائص الباء:

1. الجهر: يقول ابن فارس: "الجيم والهاء والراء أصل واحد. وهو إعلان الشيء، وكشفه وعلوه"[9].

فالجهر صفة قوة وشدة وعلو.

2. الباء ينتج عن قلع، يقول ابن فارس: "القاف واللام والعين اصل صحيح يدل على انتزاع شيء من شيء ثم يفرع عنه ما يقاربه"[10]، وفي القلع قوة وشدة.

3. الغلظة: والغلظة ضد الرقة والليونة، وهي الخشونة والشدة.

وهو صوت يشبه خفقة الكف على الأرض، والخاء والفاء والقاف اصل واحد (...) وهو الإضطراب في الشيء[11].

والباء يعتبر من أصوات القلقلة، والقلقلة هي اضطراب مخرج الحرف عند النطق به ساكنا حتى يسمع له نبرة قوية[12]. وإن حرص العرب والقراء خاصة على تشديد الإعتماد عليها عند السكت عليها، الغرض منه إبراز شدتها وجهرها، لأنها إذا سكنت ضعفت[13] ولذلك ألحقوا بها تلك التصويت في الوقف، لأنه متمم لأصواتها، وموف لها[14]. فالقلقلة هي التي يكون معها الحرف كأنه حرفان أحدهما ساكن والآخر محرك بالفتح[15].

فالقلقلة إذا زيادة في الصوت وقوة فيه.

يقول الدكتور تمام حسان: "الباء صوت شفوي شديد مجهور مرقق، ينطق بضم الشفتين وإقفال ما بين الحلق والتجويف الانفي برفع الطبق، على

حين توجد الذبذبة في الأوتار الصوتية ولقد حرص القراء والنحاة على جهر صوت الباء هذا في كل موضع [16].

إن صوت الباء يتم بضم الشفتين وإقفال ما بين الحلق والتجويف الانفي برفع الطبق، وفي الإقفال شدة وقوة.

ويقول في هذا ابن فارس: " القاف والفاء واللام أصل صحيح يدل على صلابة في شيء، والقفيل الخشب اليابس، ومنه القفل، سمي بذلك لان فيه شدا أو شدة [17]. وكذلك الرفع فيه قوة وعلو.

مما سبق نستنتج أن أهم ما يميز صوت الباء هو: الشدة، التصلب، والقوة ...

2 - القاف:

يقول ابن جني: " القاف حرف مجهور، يكون أصلا لا بدلا ولا زائدا [18].

ويقول ابن سينا: " القاف عن شق الأجسام وقلعها [19].

والقاف كما ينطق به مجيدو القراءات في مصر، صوت شديد مهموس، ينطق برفع مؤخر الطبق حتى يلتصق بالجدار الخلفي للحلق لسد المجرى الانفي، ورفع مؤخر اللسان حتى يتصل باللهاة والجدار الخلفي للحلق مع عدم حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية، فينحبس الهواء ثم ينفجر بعد انفصال العضوين المتصلين وعلى ذلك فلا فرق بين القاف والكاف إلا في أن القاف أعمق قليلا في مخرجها [20]. ويرى د | تمام حسان أن النحاة والقراء قد أخطأوا في اعتباره مجهورا لأنه من أصوات القلقلة [21].

إن أهم ما يتميز به صوت القاف هو القوة والشدة، وسنلاحظ هذا مما سيأتي:

1. من قول ابن سينا: "الشق والقلع فيهما قوة وشدة.
2. إذا تتبعنا العمليات الفيزيولوجية وحركة أعضاء النطق وما ينتج عنها أثناء إصدار هذا الصوت نلاحظ ما يلي:

- القاف صوت شديد.

- ينطق برفع مؤخر الطبق حتى يلتصق بالجدار الخلفي للحلق لسد المجرى الأنفي، لدينا عملية رفع ينتج عنها سد ومنع.

- ورفع مؤخر اللسان حتى يتصل باللهاة والجدار الخلفي للحلق،...فينحبس الهواء ثم ينفجر، عملية رفع أخرى ينتج عنها حبس ومنع ثم انفجار.

- وليس من العسير تبين القوة والشدة المطلوبتين في عمليات: الرفع، السد الحبس والإنفجار، هذا من جهة، ومن جهة ثانية الأعضاء العاملة هي خاصة: مؤخر الطبق، الجدار الخلفي للحلق، مؤخر اللسان (أثبت من مقدمه أو وسطه) ....، وأغلبها أعضاء ثابتة وصلبة .

يقول ابن جني: " الخضم لأكل الرطب (...) والقضم للصلب اليابس، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس [22]. وهو من حروف القلقلة ... ومن حروف الاستعلاء وهي من صفات القوة.

3 – الدال:

يقول ابن جني: " الدال حرف مجهور يكون في الكلام على ضربين: أصلا وبدلا، فإذا كانت أصلا وقعت فاء وعينا ولاما (...) وأما البدل، فإن فاء افتعل إذا كانت زايا قلبت التاء دالا، وذلك نحو ازدجر، ازدهى، ازدار ... [23].

ويقول ابن سينا: " التاء عن قرع الكف بأصبع بقوة، والدال عن أضعف منه [24].

و يقول د | رمضان عبد التواب: " الدال صوت شديد مجهور مرقق، ينطق بأن تلتصق مقدمة اللسان باللثة والأسنان العليا إلتصاقا يمنع مرور الهواء ورفع الطبق ليسد التجويف الأنفي، مع ذبذبة الأوتار الصوتية، وبقاء مؤخرة اللسان في وضع أفقي، ثم يزال السد بانخفاض مقدمة اللسان، فيندفع الهواء المحبوس إلى الخارج [25].

ويقول د | تمام حسان: "الدال صوت أسناني لثوي شديد مجهور مرقق ينطق بإلصاق اللسان بداخل الأسنان العليا، ومقدمة اللثة في نفس الوقت الذي

يلتصق به مؤخر الطبق، بالجدار الخلفي للحلق، وتحدث ذبذبة في الأوتار الصوتية [26].

إن أهم ما يتميز به صوت الدال هو القوة والصلابة. يتصف بالجهر وفيه قوة، وأهم الأعضاء العاملة في إصداره هي: الأسنان، اللثة، ورفع الطبق وهي من الأعضاء الصلبة القوية، بالإضافة إلى ما يشترك فيه مع الصوتين السابقين من القوة والشدة، وهو أيضا من حروف القلقلة. فالأصوات الثلاثة إذن تشترك في: القوة، الشدة.

ولا نجد أدنى صعوبة في تلمس هذه الدلالات في المفردات الآتية:

الباء: - بث: فرق والتفريق يحتاج إلى قوة وقدرة.

-بد: يدل على الغلبة والقهر والإذلال.

-بس: ((بست الجبال بسا)) فت الشيء وخلطه [27]، ويحتاج أيضا إلى قوة.

-بك: يدل على التزاحم والمغالبة، وقال الخليل: البك دق العنق [28].

-بتع: يدل على القوة والشدة، فالبتع طول العنق مع شدة مغرزه. ويقال لكل شديد المفاصل بتع [29].

-بتك: يدل على القطع، بهز، بظ: قوة في الجسم، بقي، بهر، بهظ.

-بخع: يدل على القتل وما داناه من إذلال وقهر [30]، بهز: دفع بعنف.

-بأج: صرخ، بأر: حفر، بأس: اشتد وشجع، بطر: شق، بطش.

-بتر: قطع، بج: شق، بجع: قطعه بالسيف، بز: غلب [31].

القاف: - قد: قطع الشيء طولا. وقط: قطعه عرضا بسرعة.

-قر: تمكن.

-قمد: يدل على طول وقوة وشدة [32].

-قنا: ارتفاع في الشيء [33].

-قهر: غلبة وعلو.

-قوت: إمساك وحفظ وقدرة على الشيء ((وكان الله على كل شيء مقيتا)) [34]. - قيد: حبس الشيء .

-قبل: مواجهة الشيء للشيء [35].

-قحف: شدة في شيء وصلابة [36].

-قحل: يبس في الشيء وجفاف [37].

-قدر: مبلغ الشيء وكنهه ونهايته [38].

-قرص: قبض شيء بأطراف الأصابع مع نبر يكون أي ارتفاع [39].

-قرع: قتل، قمع، قلع ...

الدال: - دع: يدل على حركة، ودفع واضطراب.

-دسم: يدل على سد الشيء، دمك: يدل على الشدة والسرعة.

-دسر: يدل على الدفع، دقق: دفع الشيء قدما.

-دعق: يدل على التأثير في الشيء والإذلال له.

-دعم: يدل على شيء يكون قياما الشيء مساكا.

-دعص: يدل على دفع وتأثير، دعز: الدفع والتقحم في الشيء.

دهر، دفع، دمر، دام، درس، درأ، دخم: دفع بإزعاج، دحض...

فهذه المجموعات من الأفعال يجمع بينها معنى دقيق نابع من الأصوات المذكورة لقوتها، وهي الأصوات التي جعلت من سورة "ق" مسرحا لمظاهر القوة الشدة والتصلب. ولعل المطلع على تفسير هذه السورة لن يصعب عليه الإحساس بالمواقف الصلبة والشديدة التي تطغى على مساحتها من حقيقة القرآن الكريم، والإنكار الشديد للكافرين له، ولحامله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ولما أتى به من حقائق ربانية لا ريب فيها كالبعث والنشور والحساب، واستبعادهم لأن يبعثوا من جديد بعد موتهم، وتكذيبهم لهذه الحقائق وبشدة بعد إبدائهم تعجبهم الشديد منها.

ومع تقديم الحجج والعبر من الأقوام السابقة التي أهلكها الله بكفرها وطغيانها، ودلائل قدرة الله وعظمته وخلقه للسماء والأرض الممدودة المثبتة

بالرواسي الشامخات، وخيرات الله ونعيمه مما تنبت الأرض، وعلمه بأخفى خفايا مخلوقاته، وذكره للساعة الشديدة وجاءت سكرة الموت الشديدة بالحق والبرهان، ليكون بعدها مآويان، جهنم للطاغين المكذبين المعاندين، المشركين بالله مع شياطينهم الذين أغروهم، ومأوى المتقين، الخاشعين لله، وهو الجنة.

ويؤكد في الختام على قدرة الله عز وجل التي أهلكت من كانوا أشد بطشا منهم ولم ينجوا وفي كل ذلك عبرة لمن يعتبر، والله تعالى قادر على خلق السماوات والأرض وما بينهما وإعادة البعث ليس إلا أمرا جد يسير على الله تعالى.

نلاحظ إشتمال السورة على قضيتي البعث والتوحيد، والتأكيد عليهما حيث ذكرا في بداية السورة وفي ختامها: ((فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)) [40].

وهذه السورة تحمل في طياتها معاني التصلب، والشدة، وبلوغ الأمر غايته وحده وأشده، وهذا ما يتوافق ويتلائم وما تحمله الأصوات الطاغية على مستوى السورة من دلالات القوة والتصلب والشدة، وبما شكلت من وقع قوي.

ونسجل الملاحظة الآتية:

إن الدلالة العامة التي تشترك فيها الأصوات الثلاثة، وهي الشدة والقوة، ليست متماثلة، ولا متساوية، وإنما هذه الدلالة هي الخيط المحوري البارز والرابط بينها، بدرجات متفاوتة، فالقوة والشدة تختلفان من صوت إلى آخر، وإن كان من الصعوبة بمكان تحديد توجهها وتخصصها، وتبين الفروق الدقيقة بينها، إلا أننا مع ذلك نقترح الآتي:

صوت القاف: شدة عميقة.

صوت الدال: شدة دفعية.

صوت الباء: شدة عامرة المنتهى.

وإن كانت بعض النماذج لمفردات تؤكد هذا مثلا:

صوت القاف: القرآن الحق، الرزق، التقوى، الخلق، القوم ...

صوت الدال: مزيد، إدخال، شهيد، سجود، وعيد، أشد ...

صوت الباء: عجاب، تراب، كتاب، بهيج، عذاب، وهاب، مناب ...

ولكن تقديم النماذج لا يؤكد ما نذهب إليه، ولن يكفي – لأمرين على الأقل – في مقامنا:

1. إن منطلقنا من الصوت ثم المفردة ومجموعة المفردات.
2. وبذلك يجب استقراء عدد كبير، ومعتبر من المفردات لنقدمها كنماذج توصلنا إلى الاستنتاج النهائي، أي ننتهي إلى ما أقررنا أولا.

ويمكننا ترتيب هذه الأصوات من أقواها وأشدها إلى أقلها كالآتي: الدال، الباء ثم القاف، وللسائل عن هذا الوصف، نقول: إنه يعتمد على ملاحظة الأثر السمعي الناتج من وقر الأصوات في الأذن.

وقد نخالف في إطلاق الوصف، لكن ما لا نخالف فيه وهو الأساس، أن هناك فروقا واضحة ودقيقة بين قوة وشدة كل من هذه الأصوات الثلاثة. .

بعد كل ما سبق نخلص – وإن كنا لا نجزم بدلالة الصوت دلالة صارخة صريحة – فإننا مع هذا لن نضرب صفحا عما تبين لنا من نقاط وأمور في هذه الدراسة وعلاقتها ب: "الصوت والمعنى "، نجملها فيما يأتي:

1. فواتح السور الكريمة أصوات لا يمكن القول بزيادتها، فلا شيء زائد في القرآن.
2. تطغى على السورة أصوات بعينها معددة، وواضحة، وظاهرة بصورة جلية، كما هو الحال في سورة (ق): القاف، والدال والباء.
3. إنتماء الأصوات الطاغية إلى مجموعة بعينها، واشتراكها في خاصية معينة.
4. إتفاق نقطة إشتراك الأصوات أو نقطة تقاطعها مع المحور العام للسورة.
5. تناسب محتوى السورة مع صفات القوة في الأصوات: كالإستعلاء، القلقلة، الشدة، التفخيم، الإنفجار وغيرها، فكل صوت له خاصية قوة بعينها.

6. توافق الأصوات وسماعها من الطبيعة فالأصوات مصدرها العالم الخارجي.

7. تناسب وقع وقرع الأصوات مع محتوى السورة وتناسب الأحداث والمواقف الواردة فيها.

8. الإحساس بالمحاور العامة لسورة بعد الإستماع للسورة بأصواتها ومفرداتها وتراكيبها، وهذا قبل الإطلاع على التفاسير والشروح، ويقول في هذا الشيخ عبد العظيم الزرقاني: " إن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية وهي مرسلة على وجه السذاجة في الهواء مجردة من هيكل الحروف والكلمات (...) شعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب" [41].

وغالبا ما تكون الفاصلة هي التي تضبط وتحدد التدفق الدلالي للسورة.

الهوامش :

(1) الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، 1984، ط6، ج6، ص 394 .

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، 1988، ج5، ص3004.

(3) نفسه، ص 3005 .

(4) سر الصناعة، ابو الفتح عثمان ابن جني، دار القلم، دمشق، 1985،ط1، ج1، ص119 .

(5) الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، دت، ط2، ج2، ص165 .

(6) أسباب حدوث الحروف، ابو علي ابن سينا، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، 1978، دط، ص28.

(7) رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الخانجي للطباعة والنشر، 1984، ط2، ص42.

لقد أوردنا مصطلحات: الشديد والمجهور حسب ما هو متعارف عليه بين المحدثين.

(8) أسعد أحمد علي، تهذيب المقدمة اللغوية، دار السؤال للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ط4، ص63.

(9) المقاييس، احمد ابن فارس، دار الفكر، 1979، دط، ج1، ص487.

(10) المقاييس، ج5، ص21.

(11) المقاييس، ج2، ص201.

(12) محمد عبد الكريم الرديني، التمهيد في أحكام التجويد، شركة الشهاب، الجزائر، 1987، د ط، ص19.

(13) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تصحيح ومراجعة محمد علي الصباح، دار الكتاب العربي، دت، دط، ج1، ص213.

(14) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، ج2، ص328.

(15) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، 1992، ط2، هامش ص83.
(16) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1986، ط1، ص91.
(17) المقاييس، ج5، ص112.
(18) سر الصناعة، ج1، ص277.
(19) أسباب حدوث الحروف، ص26.
(20) رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص54 | 55.
(21) مناهج البحث في اللغة، ص96.
(22) الخصائص، ج2، ص159 | 160.
(23) سر الصناعة، ج1، ص185.
(24) أسباب حدوث الحروف، ص27.
(25) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص96.
(26) مناهج البحث في اللغة، ص93.
(27) المقاييس، ج1، ص181.
(28) نفسه، ج1، ص186.
(29) المقاييس، ج1، ص195.
(30) نفسه، ج1، ص206.
(31) المفردات مأخوذة بشرحها عن: لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والأعلام، المطبعة الكاثوليكية.
(32) المقاييس، ج5، ص25.
(33) نفسه، ج5، ص29.
(34) نفسه، ج5، ص38.
(35) نفسه، ج5، ص51.
(36) نفسه، ج5، ص61.

(37) نفسه، ج5، ص نفسها.

(38) نفسه، ج5، ص62.

(39) المقاييس، ج5، ص71.

(40) الآية 45، سورة (ق).

(41) عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، دت، ط3، ج2، ص205.